شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي -رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١١)

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد: قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا وللمسلمين: [ومما يحقق قولنا ويبطل دعواهم احتجاب الله عز وجل من الخلق فوق السموات العلى.

باب الاحتجاب:

قال الله تبارك وتعالى: ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ))[الشورى:٥١].

حدَّثنا علي بن المديني، (قال): حدَّثنا موسى بن إبراهيم بن كثير بن بشير بن الفاكه الأنصاري، ثم السلمي قال: سمعت طلحة بن خراش بن عبد الرحمن بن خراش بن الصمة الأنصاري، ثم السلمي يقول: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: نظر إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: {يا جابر ما لي أراك مهتماً؟} قال: قلت: استشهد أبي وترك ديناً عليه وعيالاً. فقال: {ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحاً، فقال: يا عبدي، تمنَّ علي أعطك}. وساق علي الحديث].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عقد المصنف رحمه الله هذا الباب (باب الاحتجاب)، ليثبت أنَّ الله سبحانه وتعالى دونه حُجُب، وأنَّ مقتضى ذلك أن يكون سبحانه بائن من خلقه، ليس مختلطاً، بهم، ولا حالاً فيهم كما يدعيه الجهمية الذين يقولون:

هذه المادة لم تراجع على الشيخ - حفظه الله -

إنَّه في كلِّ مكان، والأمكنة إليه سواء، فمن كان محتجباً بالحُجُب فإنَّه متميِّز بائن منفصل عن خلقه، ليس في خلقه شيء منه، وليس فيه شيء من خلقه، فلذلك عقد هذا الباب واستدل بقول الله تعالى: ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ))[الشورى:٥١]، فأثبت الله تعالى الحجاب، ويسوق أحاديث كثيرة في إثبات الحُجُب، ونوعها، فهذا مراده رحمه الله، فكان الحديث الأول الذي ساقه حديث قال عنه المحشي عندي أو المحقق: إنَّه حديث حسن لغيره. وماذا عندك؟

....

يقول: سيأتي، على كلِّ حال هذا حديث استشهاد والد جابر بن عبد الله، ومن فوائده: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان رفيقاً بأصحابه، يتفقدهم، وإذا رأى على أحدهم ما ينكره فإنَّه يسأل عنه، فهذا مصداق قول الله تعالى ((بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ))[التوبة:١٢٨]، فقد قال له: {ما لي أراك مهتماً}، هذا وهو لم يشكُ إليه، وإنَّما رأى أثر الهم على وجهه.

وفيه أيضاً تسلية المصاب، فإنَّ نبينا صلى الله عليه وسلم قد سلاه بما أدخل السرور على قلبه في شأن أبيه، وأيضاً أعانه على قضاء دين أبيه، كما هو معلوم من أحاديث أخر، فهذا من كمال رعاية النبي صلى الله عليه وسلم وحسن صحبته بأصحابه.

وفيه – وهو موضع الشاهد – قوله: {ما كلَّم الله أحداً قطّ إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحاً}، وهذا لا يتعارض مع الآية، فإنَّ الآية إنَّما تتعلق بأمر الدنيا، أما في الآخرة فإنَّ الله سبحانه وتعالى يُرى بالأبصار، ومن ذلك أنَّه كلَّم عبد الله بن حرام والد جابر بن عبد الله، كلمه كفاحاً، وهذا في حياة البرزخ، وحياة البرزخ متصلة بالحياة الآخرة، هذا موضع الشاهد، وهذه بعض فوائد هذا الأثر.

ثم قال: [حدَّثنا عمرو بن عون الواسطي، (قال): أنبأنا هشيم، عن داود، عن الشعبي، (قال): حدَّثنا مسروق، قال: بينا أنا عند عائشة أم المؤمنين، فقالت: يا أبا عائشة من زعم أنَّ محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، وتلت: ((لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ))[الأنعام:١٠٣]، ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ))[الشورى:٥١]].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

هذا الحديث بهذا الإسناد فيه ضعف، لأنَّ هشيم قد عنعن، وهو مدلس، ومن المعلوم أنَّ المدلس إذا عنعن فإنَّ هذا ضعف في الإسناد، ولكنه – بحمد لله – قد ثبت في صحيح مسلم بسياق أتم، وهو ما رواه مسروق، قال: (كنت متكئاً عند عائشة رضي الله عنها، فقالت: يا أبا عائشة، ثلاثٌ من تكلَّم بواحدة منهنَّ فقد أعظم على الله الفرية)، والفراء هو: أعظم الكذب، (قلت: ما هنَّ؟ قالت: من زعم أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئاً فجلست)، ومراده بذلك أنَّ هذا الأمر قد أنكره، (فقلت: يا أم المؤمنين، أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل: ((وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ))[التكوير:٢٣]، ((وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى))[النجم:١٣]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وقطعها بذلك باعتبار ما ظهر لها، لعلها سألت النبي صلى الله عليه وسلم بحكم قربها منه، وغلب على ظنها أنَّها أول سائل، قد يكون الأمر كذلك، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من شأن عائشة – كما تعلمون – لذكائها وحدَّة ذهنها إذ كانت فتاة شابة ذكية نبيهة أنَّها تسأل، كما سألت النبي صلى الله عليه وسلم لما حدَّث وقال: {ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك}، فأوردت عليه وقالت: يا رسول الله، أليس الله تعالى يقول: ((فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا))[الانشقاق:٧-٨]؟ وهذا إيراد في محله، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم هذا اللبس الذي وقع لها، وقال: {يا عائشة، ذاك العرض، ومن نوقش الحساب عُذِّب}، ففرَّق بين العرض والمناقشة، وكذلك هاهنا أوردت هاتين الآيتين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: {إنَّما هو جبريل}، يعني: الذي رآه بالأفق المبين ونزلة أخرى {إنَّما هو جبريل، لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء سادًّا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض}.

(فقالت: أولم تسمع أنَّ الله يقول: ((لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ))[الأنعام:١٠٣]؟) وهذا أحد المحملين لهذه الآية، وسيأتينا إن شاء الله في باب الرؤية مزيد تفصيل، إذ أنَّها رضي الله عنها ترى أنَّ دلالة هذه الآية على منع الرؤية في الدنيا، وبعض العلماء يحمل هذه الآية

على نفي الإدراك، وأنَّ نفي الإدراك لا يلزم منه نفي الرؤية، لكن هذا على كلِّ حال جواب، أحد الأجوبة أجابت به أم المؤمنين.

(أولم تسمع أن الله يقول: ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ))[الشورى:٥١])، هذه الأولى.

(قالت: ومن زعم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية)، حاشاه، والله يقول: ((يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ))[المائدة:٦٧].

قالت – وهذه الثالثة –: (ومن زعم أنَّه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية)، يعني: من زعم أنَّه يخبر يعني: يدَّعي علم الغيب، فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ((قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ))[النمل:٦٥]، فهذه ثلاث، فتبيَّن – بحمد لله – أنَّ هذا الحديث صحيح، وإن كان بالإسناد الذي رواه الدارمي ضعيفاً.

لكن المراد من هذا نفيها أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعيني رأسه مباشرة، وإنَّما كان من وراء حجاب، فحتى حين عُرج به إلى السموات العلى وكلَّمه الله فكان ذلك من وراء حجاب، وهذا هو الحق في هذه المسألة أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يرَ ربه بعيني رأسه، ولهذا لما سأله أبو ذر قال: {نورٌ أنَّى أراه}، وفي لفظ قال: {رأيت نوراً}، فكلُّ من ادعى رؤية الله في الدنيا فهو كاذب، إنَّما يُرى الله تعالى في الآخرة.

[حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة، (قال): حدَّثنا جرير، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع، فقال: {إنَّ الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفَع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره}].

الله أكبر، أين الأربع؟ هذه لابد أن تكون أربع جمل، {إنَّ الله لا ينام لا ينبغي له أن ينام}، هذه واحدة، {يخفض القسط ويرفعه} هذه الثانية، {يُرفَع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل} هذه الثالثة، {حجابه النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره} هذه الرابعة، وهكذا كان نبينا صلى الله عليه وسلم إذا تحدَّث تحدَّث بكلام فصل، لو شاء العادُّ أن يعدَّه لعدَّه، كما قالت عائشة رضي الله عنها، فالله تعالى منزَّه عن النوم، ولا ينبغي له ذلك، ((لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ))[البقرة:٢٥٥]، لأنَّه قيوم، والقيوم هو: القائم بنفسه، المقيم لغيره، فلا يُتصوَّر في حق القيوم أن يدركه نوم ولا سنة، وهو سبحانه وتعالى يخفض القسط ويرفعه، أي: الموازين، يُرفَع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، أي: أنَّ أفعال عباده تبلِّغها ملائكته إليه، كما مرَّ بنا في الملائكة الذين يتعاقبون فينا، ويجتمعون في صلاة العصر وفي صلاة الفجر، والشاهد منه: {حجابه النور}، وقد أشار المحقق إلى أنَّ طبعة ليدن فيه: {حجابه النار}، وأنَّ المثبَت في طبعة دار ابن الأثير {حجابه النور}، والظاهر – والله أعلم – أنَّ كلَّ ذلك ثابت، لأنَّه سيأتينا في الأحاديث أنَّ الحُجُب أربعة، وأنَّ منها نار ومنها نور، فيُحمل كلُّ حديث على أحد هذه الحُجُب، فهو قد احتجب بنار ونور سبحانه وبحمده، لو كشف سبحانه هذه الحُجُب، وقوله: {لو كشفها}، يؤيد ماذا؟ أن تكون (النار)، لأنَّ (النور) مذكر، و(النار) مؤنث، فلم يقول: لو كشفه، وإنَّما قال: {لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه}، يعني: بهاؤه، {كلُّ شيء أدركه بصره}، ومعنى ذلك: أنَّه يحترق كلُّ شيء، لأنَّ بصره يدرك كل شيء، لكنه سبحانه وتعالى يوم القيامة إذا مكَّن المؤمنين من رؤيته يعطيهم ما يتمكنون فيه من الرؤية دون أن يلحقهم حرق.

ثم قال: [حدَّثنا محبوب بن موسى الأنطاكي، (قال): أنبأنا أبو إسحاق الفزاري، عن سفيان، عن عبيد المكتب، عن مجاهد، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: احتجب الله من خلقه بأربع: بنار وظلمة، ونور وظلمة].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

أشار إلى أنَّ هذا الحديث أثر صحيح، وابن عمر لا يمكن أن يأتي بمثل هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان في الواقع ابن عمر قد حصَّل يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، لكن مثل هذا الأمر المتعلق بذات الله تعالى لا يتصور أن يرويه إلا عن علم.

....

عبد الله بن عمرو، لعلي وهمت إذاً، حصل عندي تردد هل كان ابن عمر أو ابن عمرو.

[حدَّثنا موسى بن إسماعيل أبو سلمة، (قال): حدَّثنا حماد وهو ابن سلمة (قال): أنبأنا أبو عمران الجوني، عن زرارة بن أوفى، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل: {هل رأيت ربك؟} فانتفض جبريل وقال: يا محمد، إنَّ بيني وبينه سبعين حجاباً من نور، لو دنوت من أدناها حجاباً لاحترقت].

أشار إلى أنَّ هذا مرسل.

[قال أبو سعيد: من يقدِّر قدر هذه الحجب التي احتجب الجبار بها؟ ومن يعلم كيف هي غير الذي أحاط بكل شيء علماً؟ ((وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا))[الجن:٢٨].

ففي هذا أيضاً دليل أنَّه بائن من خلقه، محتجب عنهم، لا يستطيع جبريل مع قربه إليه الدنو من تلك الحجب، وليس كما يقول هؤلاء الزائغة: إنَّه معهم في كلِّ مكان، ولو كان كذلك ما كان للحجب هناك معنًى، لأنَّ الذي هو في كلِّ مكان لا يحتجب بشيء من شيء، فكيف يحتجب من هو خارج الحجاب كما هو من ورائه؟ فليس لقول الله عز وجل: ((مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ))[الشورى:٥١] عند القوم مصداق.

والآثار التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في نزول الرب تبارك وتعالى تدلُّ على أنَّ الله عز وجل فوق السموات على عرشه، بائن من خلقه].

ما تقدم هذه الجملة صدق فيه أبو سعيد رحمه الله، فإنَّ إثبات الحُجُب دليل على أنَّ الله تعالى بائن من خلقه، ولو لم تكن تعطي هذا المعنى لما كان لذكرها فائدة، فكلُّ عاقل، وكلُّ عربي يفهم من هذه الأحاديث أنَّه

ينبغي أن يكون الرب سبحانه وتعالى بائن من خلقه، منفصل عنهم، وليس فيه ما ادعاه هؤلاء الزائغون من الجهمية من أنَّه في كلِّ مكان. ثم إنَّه جعل مدخلاً إلى باب النزول فقال:

[باب النزول.

قال أبو سعيد رحمه الله: فما[1] يعتبر به من كتاب الله عز وجل في النزول، ويحتج به على من أنكره قوله تعالى: ((هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ))[البقرة:٢١٠]، وقوله: ((وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا))[الفجر:٢٢]، وهذا يوم القيامة إذا نزل الله ليحكم بين العباد، وهو قوله: ((وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا))[الفرقان:٢٥-٢٦]].

ليس في أيٍّ من هذه الآيات لفظ النزول، ولكنه يُفهم بالمعنى، فإنَّ كلَّ هذه الآيات دالة على حصول النزول بالضرورة، فقوله تعالى: ((هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ))[البقرة:٢١٠]، ((أَنْ يَأْتِيَهُمُ)) هذا يقتضي أن ينزل سبحانه وتعالى لفصل القضاء بين عباده، ((فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ))، الغمام هو: السحاب الأبيض الرقيق، وهو ما جاء في سورة الفرقان ((وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلًا))[الفرقان:٢٥]، وقد ورد في ذلك حديث في صفة هذا التشقق أنَّ السماء الدنيا تنشق فتنزل ملائكتها وتحيط بأهل الموقف إحاطة السوار بالمعصم، ثم السماء الثانية، فيحيطون بمن قبلهم، إلى السماء السابعة، فينزل الجبار سبحانه وتعالى لفصل القضاء بين عباده، فهذه الآيات الكريمات مفسَّرات بالأحاديث التي سيرد ذكر بعضها.

ومسألة النزول وكذلك اللفظ بالمجيء ((وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا))[الفجر:٢٢]، فإنَّ المجيء يقتضي نزوله سبحانه وتعالى، إذ أنَّ الفصل بين العباد يقع على الأرض، ((يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ))[إبراهيم:٤٨]، ومجيئه ونزوله سبحانه وتعالى لا ينافي علوه، فإنَّه يمكن، والله تعالى ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ))[الشورى:١١] أن يحصل منه النزول على وجه لا يكون فوقه شيء من مخلوقاته، حتى

[1] لعل الصواب: فمما.

العرش، وقد اختلف أهل السنة في نزوله سبحانه وتعالى هل يلزم خلو العرش منه أم لا؟ فجمهور أهل السنة من المحدثين والفقهاء على أنَّه لا يخلو منه العرش، وأنَّ النزول لا يقتضي خلو العرش منه، فإنَّه ينزل وهو مستو على عرشه، والقول المقابل له قول ذهب إليه بعض أهل السنة وهو أضعف الأقوال، وهو أنَّه يخلو منه العرش، ينزل فيقتضي ذلك مفارقة العرش، وهذا هو أضعف الأقوال في هذه المسألة، والقول الثالث هو التوقف والسكوت والإعراض عن هذا، وعدم القطع بشيء، لأنَّ الله تعالى يقول: ((وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ))[الإسراء:٣٦]، ولا شك أنَّ هذا أسلم الأقوال.

أما مسألة النزول فهي مسألة عظيمة، وهي من المسائل الفاصلة بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم، وقد تواترت، أقول: تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في إثبات النزول، فقد رواها نحو ثمان وعشرين نفساً من الصحابة، ثمان وعشرين صحابياً كلهم رووا أحاديث النزول، وأبو عثمان الصابوني رحمه الله في "عقيدة السلف وأصحاب الحديث" سرد منها نصوصاً عن نحو سبعة أو أكثر من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وغيرهم ذكر أكثر من ذلك، فهي مسألة مقطوع بها نزول الرب سبحانه وتعالى إلى سماء الدنيا.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.